النبراس

١٣٢٧

بيروت غرة شوال سنة ١٣٢٧ = الموافق ١٥ تشرين الاول سنة ١٩٠٩

الاستقلال الشخصي

او الاعتماد على النفس

ما من أُمة طرحت عنها رداء الخمول ، ونزعت جلباب الضعة والضعف ، الا وكان استقلال الفكر في افرادها قائدها الى ذلك ، ورائدها الى ما هنالك ، وما من أمة تقهقرت بعد التقدم ، وخملت بعد التنبيه ، الا وكان التواكل مدعاة خمولها ، والاعتماد على الغير وعدم الاستقلال سبب تقهقرها

ذلك لان المرء باعتماده على غيره يضعف عزمه ، وتنحل ارادته ، ويفتر اقدامه على الاعمال ، اتكالاً على ان في الميدان من يقوم بهذا العمل فلا حاجة الى ارهاق نفسه واتعاب جسمه ، وهكذا يترك المعتمد عليهم الاعمال والسعي اعتماداً على غيرهم وهلمّ جرّاً ، وبذلك يفسد النظام ، وتنحل عُرى المدنية ، ويستولي الكسل واليأس الى ان تصبح الأُمة في مؤخرة الامم ، فأما ان تمحق وتمحى ، واما ان تستولي عليها أمة اخرى فتندغم فيها وتصير جزءًا منها

اما ان اعتمد كل فرد من افراد الأُمة على نفسه فانه يقوى عزمه وتشتد ارادته فيقدم على الاعمال غير هياب ولا وجل ولا مباليًا بارهاق نفس او اتعاب جسم ، ومتى سرى هذا الفكر في نفوس افراد الامة نهضت بعد القعود ، وترقت بعد التدني ، وتنبهت بعد الغفلة

فأول ما يجب على المصلحين عمله هو السعي وراء بث هذا الروح الطاهر في الناس حتى تتربى فيهم ملكة الاستقلال والاعتماد على النفس ، وبسوى ذلك لايمكن النهوض بالامة ، اذ ان لم يكن فيها استعداد يدفعها ان ترقي نفسها بنفسها دون مساعدة خارجة فيها فلا سبيل الى ترقيتها والأخذ بيدها ، وان ترقت ونهضت فلا تلبث ان تسقط وتقهقر متى حال دونها ودون المساعدة الخارجية حائل :

لا تنتهي الانفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

وهذا هو الشأن في الحكومات كما هو في الامم فان الحكومة التي ليس لها استعداد لدفع الطوارئ فانها تكون بحكم الطبيعة منقادة لحكومة اعظم منها قوة وآثاراً في الارض تأتمر بامرها وتنتهي بنهيها، وتفتح لها الابواب لتلج في اراضيها وتستثمرها ،وتستبد بمرافقها ومصالحها في مقابل حمايتها ودفع الكوارث عنها،غير ان هذه الحماية لاتبقى ابد الدهر بل لابد انها تنحل يوماً ما فتؤول تلك الحكومة المتكلة على غيرها عرضة للحوادث وهدفاً لسهام الطامعين

ليس معنى الاستقلال الفكري او الاعتماد على النفس ان يترك الانسان مشورة غيره ممن يعتقد فيهم العقل والعلم والاختبار، كلا — وانما هو ان لايترك العمل والتفكر اتكالاً على ان غيره يعمل او يفكر ، بل ليفتكر ويعمل هو ايضاً فان كان فكره وعمله خيراً من فكر وعمل غيره فبها ونعمت ، والا انقاد لفكر سواه وعمل به ، وبذلك يكون مستقل الفكر ايضاً ، اذ لم يجره احد على اتباع غيره او عدمه ، بل ان فكره هو الذي ارشده الى ان ما جاء به فلان من الاعمال او ابداه من الافكار هو حق

كثير من الناس يهملون شؤونهم الخاصة كتعليم ابنائهم وتشييد المدارس والمعامل وغير ذلك اعتماداً على الحكومة ، ولو عقلوا لاقلعوا عن هذا الفكر ، لان الامة التي تعتمد على الحكومة في مثل ذلك هي أمة متقهقرة ساقطة ، والامم الحية الراقية هي التي تشيد المدارس وتنشيء المعامل والمصانع غير متكلة على حكومة ولا معتمدة على حاكم

ان الحكومة هي تابعة للامم رقياً وانحطاطاً فمتى كانت الأمة منحطة انحطت حكومتها

بحكم القسر ، ومتى كانت الامة راقية ترقت معها بحكم الضرورة ، لان الحكومة هي صورة افراد الشعب المحكوم ومثاله وخلاصته ، اذ هي منه وله على كل حال . فان اتفق ان الحكومة كانت ارقى من الامة فلا تلبث ان تنحط وتتقهقر اليه والعكس بالعكس : « كما تكونون يولى عليكم » فان كانت الامة مستقيمة ميالة للعدل والحرية والفضائل حُكمت بحكومة لا عوج فيها ولا استبداد ولا جور ولا رذيلة ، وان كانت الامة جاهلة فاجرة لا يريد افرادها العدل ولا يخضعون للحق حكمت بحكومة جاهلة فاجرة ظالمة مستبدة عوجاء لا تميل للحق ولا تخضع للعدل والخلاصة ان اخلاق الامة ان خيراً وان شراً تنطبع في مرآة وجدان الحكومة

فان ارادت امة من الامم ان يكون لها حكومة عادلة ودولة قوية فعليها باصلاح اخلاق افرادها وتعويدهم على الفضيلة والحرية الصحيحة والعلم وغير ذلك من الصفات والملكات العادلة . ومتى تمّ لها ذلك وصار الشعب عادلاً عالماً متربياً اضحت الحكومة تابعة له رقياً وعدلاً ، ومتى اضحت الحكومة كذلك انقطعت اسباب الرشوة والحكم بغير الحق ، وكل هذه الاسباب المتقدمة تدعو الشعب لمساعدة الحكومة مادياً وادبياً ومتى استغنت الحكومة وكانت متنزهة عن الرذائل كما قدمنا تسعى لجمع شتاتها واصلاح فاسدها وتقوية حيويتها واساطيلها حتى تصبح دولة مرهوبة السطوة مرعية الجانب

خذلك مثلاً الدولة العثمانية فقد كانت دولة الظلم والاستبداد واكل اموال الناس بالباطل لان الشعب المحكوم بها كان شعباً جاهلاً خامداً ميالاً للخضوع للعظماء والكبراء والامراء ، فلما وجد فيها افراد مستقلو الفكر غير معتمدين على احد في النهوض بامتهم تنبهت افرادها بما كان يوحيه اولئك المصلحون الى نفوس الشعب ، وما زالت هذه الطائفة المصلحة تبذل الجهد وتهيء النفوس وتربي الاستعداد حتى انفجر بركان الثورة وانبلج صبح الحرية فانقلب عند ذلك بغض الدولة الى محبتها والميل عنها الى الميل اليها

الاستقلال قسمان فكري وعملي ، وقد كانت الامة محرومة من كليهما بما افسده الظالمون من نفوسها ، لهذا لم نكن نسمع لها صوتاً في عالم الحياة يعرب عما يخالج فوآدها من

الآراء والافكار التي تدل على الرقي الفكري ، ولم نكن نرى لها عملاً في ميدان الجهاد الحيوى يرفع بها الى ذروة الاعتبار ويجعلها في صفوف الامم الحية الراقية ، بل كان فكرها وعملها تابعين لكل ناعق ومقتفيين اثر كل سائر ، وما ذلك الا لضعف الارادة وخمول العقل وفتور الهمة ٠ وانا لنرجو بعد ان نالت الامة حريتها ان تنزع عنها رداء الخمول وتربأ بنفسها ان تكون امة تابعة لا ارادة لها ولا فكر

نعم لا ننكر اننا الآن لم نزل محتاجين الى غيرنا في كثير من الآراء والاعمال ، غير اننا لو ثابرنا على تذليل الصعاب وازالة العقبات فلا نلبث ان نصل الى الغاية المقصودة بحول الله وقوته فان الامم الغربية التي نقلدها ونعتمد عليها في العلم والعمل كانت احطّ منا الآن علماً وعملاً بل لم يكن لديها ما يصح ان يسمى علماً وعملاً ، لكنها بعد اختلاطها بالامم المشرقية والامة الاندلسية جدّت واجتهدت حتى بلغت ما هي عليه الآن من الترقي الباهر في العلم والعمل

وليس بدعاً ان نكن نرتقي ... لمجدنا من هوة المصرع
فالشمس بعد الكسف تبدولنا ... وتنجلي في رائع المطلع
والجدّ يدني شاسعات المنى ... واليأس يُقصي داني المنجع [1]

يجب ان نربي ملكة الاستقلال في النشء منذ الصغر حتى اذا شبّ ولم يكن له من يعوله او يعتمد عليه كان اعتماده على نفسه رأس مالٍ عظيم يستعين به على مكافحة اهوال هذه الحياة فان من كان حب الاستقلال ملكة فيه تهون عليه الصعاب ، وتذل لديه العقاب ، ويبذل في سبيل الحياة كل ما في وسعه ، ويفرغ مجهوده دون الوصول الى غايته والحصول على بغيته

اما من ينشأ كما ينشأ اكثر الشرقيين عالة على آبائهم لا يعرفون للحياة الحقيقية معنى ولا يدرون لحقوق الوطنية كنها ، فهم يعيشون كما تعيش البهائم السائمة ، لان لذة الحياة بالعمل ، ولا عمل حقاً الا العمل الناشئ عن الاجتهاد لا التقليد والاعتماد على النفس والاستقلال في الفكر والايجاد ، لا الركون الى من قال او عمل هذه هي الحياة وسواها هو الموت قبل الموت :

(١) الابيات لمنشيء النبراس من احدى « القصائد الشرقيات »

ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الاحياء

متى نشأ الولد فليعوّده ابواه او من له الولاية عليه عَلَى عدم الاتكال على احد في كل عمل حتي اذا بلغ مبلغ الحياة العملية فليترك وشأنه يدبر لنفسه عملاً يستعين به عَلَى الحياة حياة طيبة ، غير اننا على غير هذا المبدأ فان الوالد لا يترك ولده يعمل ويفتكر الا بعد ان يبلغ من الكبر عتياً فينشأ الولد خاملاً كسلان معتمداً على ابيه اوْ على ما يتركه له من الاموال والعقار ، لذلك تراه لا يمكنه ان يأتي عملاً او يجيد في رأي ، وهناك المستقبل التعيس وحياة الشقاء ، والحال غير هذا في النشء الغربي فانه يعوّد منذ نعومة اظفاره على هذا المبدأ الشريف الراقي مبدأ الاستقلال في الفكر والعمل حتى اذا بلغ مبلغ الشباب تخلى عنه ابواه وقذفا به في معترك الحياة وميدان الجهاد ، وهناك المستقبل الحسن والغاية الجيدة والحياة الطيبة والعيشة الراضية :

وانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعوّل في الدنيا على رجل

اذا لم تكن افراد الامة معتمدة على نفسها متكلة على ما لديها من الاخلاق والعلم والعمل فلا حرية لديها ولا يرجى لها رقى مهما كانت قوانينها عادلة ومشتملة عَلَى مافيه خير الامة والوطن . ذلك لان القوانين والانظمة اذا لم تُلفِ استعداداً في النفوس ورجالاً يعملون بها وينفذونها فانما هي حبر على ورق . ومثلها حينئذٍ كمثل ماء سقيت به الصخور فلا تنبت شيئاً ، ويكون الماء قد ذهب هدراً وضياعا

القوانين لا تجعل الناس احراراً مهما كانت فاضلة، غير ان الناس قد اعتادوا ان يعتقدوا ان خيرهم ونجاحهم مسببان عن الانظمة التي تُحكم بها بلادهم ، وهم مخطئون في هذا الاعتقاد خطأً بيناً لا يغتفر . اذ اية فائدة من القوانين ان لم تكن نفوس الشعب مستعدة لما تحويه من الاصول والمواد، بل اي نفع من النظامات اذا لم يوجد لها حاكم امين ينفذها بكل صدق واستقامة، فالقوانين لا تجعل الخامل ذكياً ولا الكسول مجتهداً ولا فاسد الاخلاق نزيهاً كاملاً ، والانظمة لا تمحو الجرائم ولا تردع الناس عن المنكرات ولا تخفف عنهم الويلات

ولا تجعلهم سعداء اذا اتاح لها حكام امناء. قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : «يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» وما للقوانين من فائدة عملية سوى انها تكون بمثابة المرشد والدليل للشعب والحاكم يستعين به على اجراء العدل والحكم بالحق حتى لا يميل ولا يجنف

فالنظامات التي يحكم بها قوم اولو نصفةٍ وعدل وذوو وجدان حر طاهر تكون وسيلة لجعل المحكومين سعداء وتمكنهم من اكتساب ما يجعلهم في سعةٍ من العيش ورغد من الحياة ، وتسهل لهم اجتناء ثمرة اعمالهم وافكارهم .

والنظامات التي يحكم بها قوم اولو جنفٍ واستبداد وذوو وجدان خبيث يميل مع الهوى تكون سبباً لشقاء الشعوب وواسطة ليأسهم من الحياة الطيبة والعيشة الراضية مهما كانت تلك النظامات عادلة وجيدة ، ذلك لان الحكام من هذه الطبقة يؤولون النصوص على حسب رغباتهم ومشتهياتهم وعلى ما يوافق هواهم ومنفعتهم الشخصية

وهذا هو الشأن في الحكومة الماضية فان ما لديها من القوانين عادل وصحيح «وان لزمه بعض تحوير وتنقيح» غير ان الذين كانوا يحكمون بها قوم لا وجدان حراً لهم ولا عدل ولا انصاف لديهم «اللهم الا قليلاً نادراً والنادر لا حكم له»

كل عمل من الاعمال لابد لحصوله من القابلية والفاعلية فان عدمت احداهما بطل العمل . فان لم توجد قابلية الاصلاح في الشعب فلا يمكن ان يكون راقياً مهما كانت الوسائط فعالة والوسائل قوية ، وان توجد الفاعلية فمن العبث محاولة ترقية الشعب مهما كانت القابلية عظيمة ومهما كان مستعداً للاصلاح والارتقاء ، لان المسبب لا يوجد بدون السبب ، فمتى انعدم السبب انعدم المسبب لا محالة

فالامم التي يوجد لها فاعلية وليست فيها قابلية لتحقق معنى الاستقلال يجب ان تربي ويبث فيها روح النشاط والحياة الاجتماعية حتى اذا تمكنت منها تلك الروح نشطت واستعدت لما تلقيه اليها تلك الفاعلية

والامم التي يوجد فيها قابلية وليست لها فاعلية تؤثر فيها وتنهض بها يجب ان يذهب افراد

منها لتلقي العلم ودرس الحرية الصحيحة وتعلم الاعمال المفيدة والصناعات حتى اذا تمكنوا من كل ذلك رجعوا الى قومهم وقد اتوهم بفاعلية عظيمة واسباب قوية وهناك يبثون فيهم ما درسوه ويوحون اليهم ما تعلموه . وليست القابلية الا الاستعداد للشيء وليست الفاعلية الا طائفة من كل امة امتازت برجاحة عقلها وسمو مداركها ووفرة معارفها واحكامها الاعمال والصناعات

فعلى هؤلاء يتوقف رقي الامم ونجاحها . اذ لو بحثنا بحثاً دقيقاً لتجلى لنا ان كل الشعوب المتمدنة الراقية لم تصل الى ما وصلت اليه من التقدم الا بواسطة افراد قلائل بالنسبة الى مجموع ذلك الشعب . وهؤلاء الافراد هم الأُلى اوجدوا المدنية واحدثوا الصناعات ونشروا العلم وكل ما يفيد بين اقوامهم

يجب ان لا تنتظر الامة المساعدة الخارجية ولا تعتمد في ترقيتها ونجاحها الا على نفسها لان تلك المساعدة متى انقطعت قبل ان تصل الامة الى الغاية المقصودة تقهقرت ورجعت الى شرّ مما كانت عليه

وكذا يجب ان لا يرتقب الشعب المساعدة من الحكومة ، بل يجب عليه ان يساعد هو الحكومة بمادياته وادبياته ، لان الشعب الذي يكون عالة على الحكومة يثقل كاهلها وقد قدمنا ان الحكومة تكون تابعة للشعب ترقياً وتقهقراً فلو لجأ الشعب الى حكومته تكون حينئذ الحكومة اقوى منه وهو احطّ منها فلا يمضي مدة حتى تنحط الحكومة وتتقهقر الى الشعب ، وبذلك يكون انحلال القسمين وفساد القوتين

اما ان تعتمد الامة على الحكومة بل كانت متكلة على نفسها فانها ترقى في يسير من الزمن متى استكملت الشروط المطلوبة للرقي ، وحينئذ ان كانت حكومتها متقهقرة متدنية فلا ان تنهض وترقى حتى تجاري الامة الراقية التي تحكمها

نالت الامة العثمانية حريتها واكثر البلاد غير مستعدة لذلك ، فان لم تبذل الجهد لترقية الاقوام الذين لم يفهموا الى الآن معنى الحرية والاستقلال الشخصي فلا تلبث الحكومة الى ان تسفل وتتدنى الى اخلاق هذه الاقوام ، ثم لا يمضي زمن حتى ترجع الحالة الى شرّ مما كانت عليه

ذلك لان الحرية الصحيحة هي التي ينالها الشعب بقوته دون مساعدة خارجة عنه كالجيش مثلاً ، او كأن تمنح الحكومة الحرية للشعب من قبل نفسها دون مجبر

اما الحرية التي تنال بواسطة الجيش فانها تنتزع بواسطته كما كاد يحصل في ثورة استانة الاخيرة الشهيرة بفتنة ٣١ من مارت او ١٣ من نيسان ، او تنتزع متى سكنت ثائرة ذلك الجيش وذهب رجاله الى اهليهم .

وكذا الحرية التي تمنحها الحكومة دون ثورة من الشعب ، فانها تنتزع متى مات او سقط السلطان المانح الحرية كما حصل في الحرية التي منحها سلطان العجم لشعبه ، فان خلفه انتزعها قسراً واهرق دماء كثيرة في سبيل ذلك ، فلو كانت الامة هي التي طالبت بحقوقها واصرت على نيل حريتها فلا يمكن ان تنتزع منها حريتها ما دام فيها رمق من الحياة

فالثورة الحقيقية ليست ثورة الجيش لطلب الحرية ولا ثورة خارجية لطلب حرية امة ، وانما هي ثورة الامة بكل معانيها ، وافضل معاني الثورة هو الثورة الادبية او الاخلاقية ، لانها هي كل شيء وكل معنى من معاني الثورة هو تابع لها على الدوام

ان الامة العثمانية قد نالت حريتها بواسطة الجيش المظفر ، واهالي البلاد منهم من هو مستعد لها ومنهم من لم يدر لها معنى ولم يفقه لها كنها ، فالحرية اذن غير مضمونة الا اذا ثارت ثائرة الاخلاق وقام المرشدون والمصلحون يعظون ويرشدون الى تغيير الاخلاق وتبدل الطباع ، فهناك يحفظ ويؤمن جانب اهوال الرجعى :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت   فان همو ذهبت اخلاقهم ذهبوا

« والخلاصة » ان الامة العثمانية اذا لم يدب في جسمها روح النشاط والاعتماد على النفس ولم يجل في جسمها دم الحقيقة والنهضة الصحيحة فلا امل بحياتها ، غير اننا نشاهد بريق الأمل ، وقد ابتدأ طلّ الحياة ينزل . فنرجو ان نرى هذا الطل وابلاً « واول الغيث قطر ثم ينهمر » حقق الله الآمال بمنه وكرمه

النفس الانسانية والتحسين

من خطاب للسيد عبدالحميد افندى الزهراوي دعي لالقاءه في حفلة اقامها في زحلة الخوري بولس الكفوري صاحب جريدة المهذب وحبس ريعها على الايتام من الفقراء والمساكين . قال :

ايها الاخوة ؟ أيتها الاخوات ؟

ان كان يوجد جديد تحت الشمس فاني ارى في بلادنا هذه أموراً كأنها جديدة . أرى تعاوناً وتسانداً ، أرى توادًّا وتواصلاً ، أرى نشاطاً ونهوضاً ، ارى اجتهاداً وارتقاء . ولكن اذا التفتنا الى الماضي نرى ان ليس هذا بالامر الجديد في بلادنا فان الاسلاف في هذه الديار عاشوا كأهل بيت واحد مودة وسلاماً ، وكأرقى الامم نشاطاً واجتهاداً ، بعقول فاقت إشراقاً ، وملئت وفاء . ولم تتعكر مياه هذه البلاد الا في القرون القليلة المتأخرة التي استعلى فيها الجهل ، واستشرى فيها الفساد ، ونبتت فيها رؤوس الفتن ، ونجمت عروق الشر ، في هذه العصور التي محت أهل العلم ، وقرضت أولي الالباب ، ورفعت اقدار الظالمين ، تغيرت البلاد ومن عليها . غير ان الله سبحانه من كرمه قد حفظ لها بزرة مجد وسعادة ، وأبقى لها اسباب بقاء وسلامة ، فلما آن الاوان لنبات هذه البزرة لم يظهر أمامنا الا الروح الطيبة التي كانت ترافق الاسلاف في هذه الديار . روح التضامن ، روح التعاون ، روح العلم ، روح السلم ، روح النشاط ، روح الانسانية ، روح الحرية الحقيقية التي نحييها الآن أحسن تحية

* * *

كان في الارض قبل ان ينشأ الانسان ويرتقي قليلاً ثلاثة اقسام من الموجودات الأول الجماد الصامت الميت الذي لا يعرف الحياة ولا تعرفه . والثاني النبات النامي الذي يحيا ويموت صابراً في ارضه يأتيه رزقه من غير حركة ولا ينهزم من وجه هاجم . والثالث الحيوان الحساس المتحرك ذو الارادة والرغبة والرهبة وكانت هذه الثلاثة

لا تصنع شيئاً على وجه الارض فلما نشأ الانسان وارتقى قليلاً وبدأ يصنع ما يصنع ظهر قسم رابع في الارض. ولكن هذا الوجود الجديد اصبح سيداً على الارض ومافيها

لهذا الموجود قصة طويلة عريضة تعرفونها كلكم فاذا كان محجوراً على الخطيب ان يخطب في شيء يعرفه السامعون لا يحصل لأحد شرف الكلام امام العلماء في شيء يتعلق بالانسان، وحينئذ لا يظهر فضل العلماء في تواضعهم. والانسان هو الموضوع الاعظم الشامل كيفما دار العلم ودارت الخطابة، ولذلك رجحت في فكري انني لا أؤاخذ على الافاضة في شيء تعرفونه. ثم الا ترون ايها الاخوة أننا مع معرفتنا كلنا بهذه الحكاية حكاية الانسان يحرص كل منا على اعادتها وتكرارها، حتى اننا نقرأها كل يوم بكرة وعشية وغدواً ورواحاً، فهذا ايضاً هو الذي رجح عندي انكم لا تملّون حديث الذي ينتهي اليه نسب الاخوين النهوض الادبي والتحسين

ان النفس الانسانية هي ام التحسين وقد ورث هو منها خصلة مهمة هي عدم الوقوف عند حد وغاية، وتعلمون ان هذا هو شأنها ولذلك صعب على الباحثين فيها التعريف بحدها او رسمها فاستراح بعضهم بادعاء انها هباء او هواء، وتوله بعضهم في طلب حقيقتها والسعي في حل رموز طلسمها

هذه النفس ابتلتنا بالتحسين فأتعبتنا لان عوائقه كثيرة ونحن مضطرون بالسائق الطبيعي ان نقاوم هذه العوائق ليجد التحسين و يسير سيرته المعهودة

نعم انني أسمي حرص الانسان على التحسين ابتلاء؛ لان الضعيف يلام ويؤنب على التقصير فيه وهو لم يرتكب ذنباً، والقوي لا يبلغ به غاية فيرجع غير ناعم البال من جهته في الغالب

لكن حبذا هذا الابتلاء ! والف مرة حبذا هذا الابتلاء ونعماً وَلَدَتْ لنا ام التحسين ايها الاخوة ؟ ان البشر اذا كانوا مستيقظين لا يحتاجون بخصوص التحسين الى وعظ وتحميس فان لديهم سائقاً طبيعياً اليه ولكن للبشر نومات

نعم ان ام التحسين التي اوجدت وأنشأت في هذه الارض أشياء لا تحصى لها نومات ، وقد تكون نومة من نوماتها سبباً في سيل يجرف كثيراً مما نعمّر وبمساعدتكم آتيكم الآن بامثلة من يقظتها ونوماتها :

ام التحسين من القديم أجرت المواخر في البحار وسيرت الزوامل في القفار ونقلت ما في المشارق الى المغارب · وما في المغارب الى المشارق

ليّنت الصلب وصلّبت اللين ، جمّدت المائع واماعت الجماد ، وأوتيت سلطاناً على النبات والحيوان ، فقللت منهما الكثير وكثرت القليل ، وطوّلت القصير وقصّرت الطويل ، واضألت السمين واسمنت الضئيل ،

جعلت الانسان فِرَقاً وجماعات وجعلت منه مسّودين وسادات ورتبت له درجات ودركات

وقفت عند كل جزء من اجزاء هذه الكوائن تستقصي حقائقه ودقائقه ، وتستنبط طبائعه ووظائفه ، وتستقرئ تاريخه وتحوّله ، وتضع لكل جزء اسماً وحداً ورسماً · ولعلها لاتتعاصى عليها معرفة جزء من الاجزاء بعد ما أُوحي اليها بأسرار الحرارة والتبرد والتقلص والتمدد والطراوة والنقدد والملاسة والتجعد والصلابة والتخاخل والرسوخ والتزلزل ،وأوتيت علماً باسرار التركب والتحلل والتشكل والتحول ، فلاشكل ولا لون ولا وضع ولا كون الاّ وقد احاطت به خبراً وتجد لديها به ذكراً

وبالاطلاع علَى هذه الاسرار ابتدعت في العهد الجديد ما ابتدعت من الماكنات والآلات واهتدت الى البخار والكهرباء ،وما انا في حاجة الى شرح ما صنعت بواسطتها

في البراري نجد صوراً طبيعية كثيرة واما في المدن حيث يجتمع الانسان فان الكثرة نجدها في الصور التي ابتدعتها ام التحسين · هنا نجد المباني ، نجد الاثاث والرياش ، نجد الاداة والماعون ، نجد الزينة والزخرف ، ومن كل ذلك نرى صوراً واشكالاً كثيرة كلها من ابتداعها وانشائها

هي اقتلعت الصلد من افلاذ الجبال وصورتها كما شاءت طبقات وحجُرات ، وزينتها كما هوَيت بصور الانسان والحيوانات ، وتعرفون ان في القرب من مكاننا هذا اثراً من الآثار الخالدة قائماً في مدينـة بعلبك شاهداً بعظمة من اقامه وما أقامه الاّ ام التحسين

والاهرام آيات اخرى قائمة في جوار النيل تستشهده او تشهد معه بمقدار ما في استطاعتها من الابداع ، وخزّان اصوان من اعاليه والقناطر الخيرية من اسافله تجدّد له ذكرى عظمتها

لم تكتفِ ام التحسين بمعرفة اجزاء الكوائن بل هي حريصة الا تنتفع بها كلها فتراها لاجزء من المعادن ولاجزء في حيوان من الحيوانات ولاجزء في نبات من النباتات الأوله لديها شأن معلوم ، فليس لديها في ذرة من الذرات عبث ولاشيء عندها سدى

القطرة من الماء لها قدر لديها ، والبحار لها شأن معروف ، والذّرة من التراب قد تعوّل عليها ، والبرارى لها امر معها موصوف ، والبزرة من النبـات تحتفظ بها . والكثبان من الحبوب عنـدها من المألوف ، والشعرة من الحيوان تقضي أرباً لها ، وحرصها على أسر الحيوانات كلها لكل احد عليه وقوف

والخلاصة انه لو أعطيت الارض كلها بما فيها لشخص واحد يحمل هذا النفس لوجد لديه لكل ذرة من ذراتها قيمة وقدراً وحاجة وأرباً

وهل تقنع ام التحسين بما في الارض كلا . فان الارض وحدها لاتشبعها وما أظنها تشبع ايضاً بالسموات لأنني اراها تبحث عما وراء الارض والسموات

عهدي بها نظرت الى هذه الكواكب المنيرة فتطاولت الى التعرف بها ولم يثن عزمها بعدها السحيق عنها ، فظلت على هذا الدرب حتى وصلت باجنحـة من عناية فاطرها وهمتها . وصلت الى التعرف بحدودها ورسومها . ومقاديرها ومسيرها وشيء من طبائعها وتأثيرها وتراكيبها وتحاليلها وتقلبـاتها وتحاويلها . قد حفظت ماضيها

وانتبهت الى حاضرها فاصبحت عارفة ببعض آتيها وصارت معرفتها بكسوف الشمس وخسوف القمر من أيسر المعارف عليها وارسخها لديها

وتطمع ان تكون في بعضها نفوس مثلها وترجو ان تتصل بها بسبب من الاسباب فتطلع على معارف جديدة في تلك الابواب

***

هذا كله فعلته ام التحسين في يقظتها وهو اجمال تحته فروع لا تحصى ، اما ماجرى ويجري في نوماتها فكنتُ اودّ ان لا افيض فيه لولا شدة اقتضاء المقام اياه

انها في نوماتها اصيبت بالغفلة والغرور فاصبح الشقاء في الارض اكثر من السعادة والحيرة اكثر من الطمأنينة ، وغدت الارض جحيماً لاكثر الناس وفي مقدمتهم المساكين لانهم اشبهوا الحيوان بقناعته الطبيعية ولا وجدوا القليل من متاع الحياة الدنيا ، وهم على نضوب هـذا المتاع عندهم وفيضان النوائب والهوان عليهم اكثر الناس كدحاً وأوفرهم عناء ، لعمر الحق ان الافكار لخليقة ان تحار في هذا الامر ولا شك ان فيه حكماً ربانية لانعرفها ولكن يصح ان نقول ان هذه الحالة من جملة نومات النفس

قالوا لنا انها عرفت كثيراً ، قلتُ نعم ولكنها بنومة واحدة تنسى اهم ما تعرفه فيحبط اهم ما تبنيه

تنسى مثلاً ان الانسان أخو الانسان وان قوام الانسانية بالعدل والاحسان ولذلك لاتمتلئ الارض يوماً واحداً عدلاً حتى يفيض مكانه الجور فتمتلئ به اعواماً

هي تنسى الحقوق ، تنسى الحدود ، تضل ابواب الحكمة ، تسلك السبل العوجاء تعرض عن منازل الخير ، تدور في دوائر السوء ، بنحرف استحسانها عن مواطن السلامة فتصبح تستحسن في سبيل قليل من الدريهمات اغتيال النفوس وتخريب العامر وتشويه الجميل واطفاء النور

ان مما لاريب فيه ان من يرى هذه الآثار السيئة التي تنزل بالانسان أسفل

سافلين وتلك الآثار الجميلة التي ترتفع به أعلى عليين يحار في امر هذا الكائن الذي هو منشأ هذه وتلك · ومن هذه الحيرة ينشأ جولان الافكار يميناً وشمالاً في هذا الميدان أترى ما هي هذه النفس وهل هذه التي للانسان غير تلك التي للحيوان على ما هنالك من الفرق العظيم، اذ لا حيوان ترتقي به نفسه التي هي حياته كبعض ما يرتقيه الانسان ولا حيوان تسقط به نفسه التي هي حياته كبعض سقوط الانسان

اما فكري فمفتون ببدائع هذه النفس الانسانية ، وما انا من القانعين بانها هباء او هواء وانها ونفس سائر الحيوانات سواء

انا أجلها كثيراً واتصور انها متى كانت مستيقظة وسليمة تأبى الا التعمير والتحسين ولكن كأن فاطرها ابى الا ان تكون كثيرة الامراض والنومات ففي حالاتها هذه يجد القبح منافذه وتكثر له الآثار والمظاهر

***

فيا ايها الاخوة ! نحن معشر البشر عشاق التحسين بطبيعتنا ولكن امراض النفوس قد تكون سارية كامراض الابدان ولذلك اذكّر نفسي وحضراتكم بأن ننظر دائماً الى ما يسمى الروح العمومية اي مجموع حسن النفوس فان رأيناها توّاقة الى الاشياء الحسنة من مادية ومعنوية وشاعرة بشيء من الالم لنقص الحسن في الاشياء التي تحيط بها يكون ذلك كافينا وحسبنا منها · ولا نحتاج حينئذٍ الى حضّنا اياها على التحسين وان رأينا حسها بهذا الخصوص ضعيفاً أو عديماً كان علينا ان نهتم ونُعنى بمعالجتها بنوع من العلاج فاذا نجحنا نكون قد خدمنا الانسانية والبلاد فان البلاد التي يمرض فيها الذوق ويضعف فيها الحرص على احاسن الاشياء لهي بلاد يتأخر عمرانها مع تقدم عمران غيرها يكثر فيها هوان الانسان ، واصعب به على النفوس الطيبة مشهداً

ايها الاخوة ؟

ان اهل التحسين جديرون بالشكر لما لهم من جليل الخدمة ، ولكن هناك خدمة

أجل هي خدمة الذين يتعهـدون احوال البلاد ويجبون نبض الروح العمومية فيها ويعالجونهـا بالايقاظ ان رأوها نائمة وبالسوق ان الفوها واقفة وبالحدو ان وجدوها وانية وبالتدريب ان لقوها جاهلة وبالتأنيس ان صادفوها نافرة وبالاسعاف ان شاهدوها عاجزة ضعيفة

ان اهل التحسين قد يصح ان نتوانى في شكرهم ، وقد نتعلل بما يكافأون به من الثوابات العاجلة احياناً ، اما اولئك الذين هم اطباء الاجتماع ، اطباء العمران ، اطباء الروح العمومية ، فلا يصح ان نتوانى البتة في شكرهم ولا يصح ان نستكثر مكافأة اعمالهم ، اولئك يخدمون الرب الاعلى جل جلاله بخدمة الانسان الذي ان تنبـه علا وان غفل هبط هبوطاً عظيماً

***

بقي امر مهم احببت ان اجعله آخر مقالي فان آخر ما تسمعـه الآذان هو اول ما يبقى في الافكار. ذلك ان اعظم الحوائل دون التحسين الحكومات المنحرفة واعظم السوائق اليه الحكومات المستقيمة ولكن لما كانت الحكومات لاتستقيم بنفسها وجب أن يكون في البلاد أفراد وجماعات يفتكرون في جعل الحكومة مستقيمة. والامم التي لا يقوم فيها افراد بهذا العمل العظيم هي امم يرثى لها

ولا حاجة الى الاسهاب في امر صار كالبديهيات في عهدنا هذا وهوأن تأسيس الشورى على الطريقة النيابية المعروفة اليوم هو احسن كافل لجعل الحكومات ناهجة منهج الاستقامة بقدر الامكان

كذلك لا حاجة الى الاسهاب في حكاية ردّدتها الالسن والاقلام كثيراً وهي حكاية الانقلاب الذي حدث في هذه المملكة على كثرة ما ورد في روايات هـذه الحكاية من الاغلاط والاختلافات التي سيكشفها التاريخ

وانما الحاجة الى بيان ما يجب على البلاد بعد هذا الانقلاب ، فاوّل واجب هو

بث روح الدستور حتى يصير انقلاب في الافكار فهو الانقلاب الراسخ ، وحتى تتكون روح عمومية ، ثم يجب تعهُّد هذه الروح دائماً حتى اذا طرأ عليها ضعف يعالج بسرعة قبل ان يستفحل

نعم ان دستورنا غير مستغن عن روح عمومية تؤيده ، واذا استغنى في ظاهره وشبحه لا يستغني في حقيقته وروحه اي انه قد يكون هناك مثال الدستور وشبحه وتكون روحه ضعيفة فتجب معالجة هذه الحالة

فالى عشاق التحسين ، والى عشاق الدستور الذي يساعد على التحسين ، ارسل هذه الكلمة « لاتتركوا وظيفتكم الاولى » لاتتركوا « معاضدة من يحيي روح الدستور » ولا تذروا مقاومة من يميت هذه الروح من اي جنس كان وأي مذهب كان

وههنا ارى حاجة الى تفسير هذه الكلمة التي وقع الاصطلاح عليها وهي الدستور ، فالدستور أصبحنا نعني به الحكم على الطريقة النيابية المعروفة بشرط ان تثمر حرية حقيقية ومساواة حقيقية وعدلاً لا ريب فيه وتسوق الى الأخاء الوطني

***

هذا ما فديت في طلابه من قبل راحتي . وهجرت في سبيل الدعوة اليه وطني عَلَى عزته في نفسي — وهذا ما احب ان يتعاهد كل اخوتي في الوطن ان يحفظوا له العهد و يفوا له بالوعد فان هذا هو الطريق الاقرب الى الانسانية ، وسعادة المعاش والمعاد انما تأتي من طريق الانسانية فليحيَ العدل ولتحيَ الحرية الحقيقية التي تحيا بها الانسانية وليحيَ سلطاننا الدستوري كثيراً

وفي الختام اتمنى ان تكون حياتكم سعيدة وتحسيناتكم سديدة ولا زلتم في مقدمة الأيقاظ الناهضين . وآخر قولي سلام أذكى سلام عليكم ايها الاخوة وعليكنَّ ايتها الاخوات

أية الحياتين افضل ؟

الزواج والعزوبة

بقلم السيد حسين وصفي رضا شقيق صاحب المنار

ان ما اقامه التمدن الحديث من البناء
الشامخ وما وضعه من الاصول الثابتة
انما شيد على حجر اساسي واحدهو المرأة
قاسم أمين

اذا كان المعرَّف يحتاج الى تعريف فمعيشة المتزوج لاتحتاج الى تفضيل على معيشة العزَب لان معنى التفضيل موجود في نفس كلمة « الزوج » التي ذهب كثير من ائمة اللغة العربية على ان معناها الاثنان ، قال ابن دريد : والزوج كل اثنين ضدّ الفرد وتبعه الجوهري · ولا يخفى ان اعظم مزية يذكرها فلاسفة الاجتماع للانسان قولهم: الانسان مدني بالطبع وخلق الانسان ليعيش مجتمعا فاذا كان اعظم فخر يلصق بالنوع الانساني كونه خلق ليعيش مجتمعا كان ولا ريب الاجتماع الزوجي افضل انواع الاجتماع العديدة بل هو علة وجودها فلولم يوجد الزواج لم يحصل الانتاج ، كما ان الانسان اكثر شغفاً به وطلباً له من سائر الانواع

انما يحفز الانسان الى طلب الاجتماع الزوجي تلك الغريزة الطبيعية التي اودعها الله في فِطَر الانسان وشاركه فيها كل حي نامٍ حتى النبات كما جزم بذلك حاصب[1] من علماء اوربا في العهد الاخير · واذا تقرر هذا فاعلم ان الفرق بين العزب والمتزوج كالفرق بين الكامل والناقص والمجتمع والمنفرد ، اذ ان من يهمل غريزة من الغرائز المركوزة في طبعه يكون انساناً ناقصاً لان الامر المهمل انما هو بمثابة المفقود و بديهي انه يترتب على ابطال عمل هذه الغريزة نفي الاجتماع الزوجي لان نفيَ السببِ نفيٌ للمسبب

(١) الحاصب : جماعة من الرجال

اذا كان ايسر انواع الاجتماع واشرفها محروماً من الانسان الذي يعدون اعظم ميزة له كونه خلق ليعيش مجتمعاً فلا شك انه يكون فاقد اعظمْ مزية من المْزايا التي ُخصَّ بهـا ، وما مثل من حرم من الاجتماع الزوجي ونشد غيره من انواع الاجتماع الاكمْل من يهمل ازالة الادران عن جسمه ويرتدي احسن الملابس وافخر الازياء وكان على مثل هـذا الوفق ان ُيعنى بازالة الدرن قبل العناية بتزيين البدن لأن كلا الامرين مطلوب لازم

سيق الانسان بسائق الفطرة الى طلب الزوج ليحفظ نوعه وبني جنسه شأن سائر الاحياء الأُخر فتزوج وانتج وشاطر زوجه واولاده ما كان ينوءُ بحمله وحده فوجد له منهم اعوانًا على مكافحة عوامل هذه الحياة ورفقـاء يأنس بهم عند الوحشة وتسكن نفسه اليهم عند الاضطراب فالانسان بزواجه يكوّن بيتاً والبيت يكوّن بيوتات ، فتتألف منهم امة علة وجودها وتكوُنها الزواج وهي معلولة له

اعسر شيء على الانسان ان ُيكلَّف بتبيين البين وتفسير الجلي الواضح ، مثلاً ان من يسألك ماهو معنى الحاصب يسهل عليك ان نقول له هو الجماعة من الرجال ولكن من يقول لك ماهي الجماعة من الرجال تجد نفسك مضطراً الى الوجوم وان لاتحير عن سؤاله جواباً لانك لاتستطيع ذلك ولايخفى ان فضل الزواج على العروبة من ابين الاشياء واوضحها لدى من تأمل قليلاً ولكن هذا لايمنعنا من تعداد بعض مزاياه ووجوه افضليته على سواه

في الزواج حفظ النوع ونماؤُه ، ولولاه لانقرض الانسان من على ظهر الكرة الارضيه ، ولو انقرض لما كان لازوج ولاعزب ولا من يفضل احدهما على الآخر ، لأن كليهما معدوم

في الزواج يشاطر الرجل المرأة اعمالاً وجدت لتكون مشتركة بينهما كالسعي في طلب الرزق فانه من خصائص الرجل وكتدبير المنزل وتربية العيال فانه مما يعسر على غير المرأة بل مما لا يستطيع الرجل ان يقوم به مع القيام بطرق الكسب

في الزواج يجد الانسان من زوجه ناصحاً أميناً وصديقاً حميماً وأنيساً خديناً ومنجداً

معيناً وراحة وسكوناً ، وهذا مايستحيل ان يوجد في غير الزوج

في الزواج يحفظ المرء نفسه مما عساه يلمُّ بها و يعرض لها — يحفظها من التلوث بتلك الادران الخبيثة التي افسدت المجتمع وخربت البيوت و بددت نظام الجماعات « العائلات » وهوت بالانسانية الى هُوَى « جمع هوة » الشقاء والهوان ، وتهددت النسل البشري بالانقراض والاضمحلال ، تلك الادران التى تلتصق بالأنسان بسبب غشيانه محال السوء القذرة وما ينتابه منها من ذلك المرض الخبيث القتال الذي هو علة العلل ، وداء الادواء ، ونكبة النكبات ، التي مُني بها الانسان حتى كادت تستأصل جنسه ، وتحمله على ان يبخع نفسه لولا ان عصم الله منها قوماً وذلك بفضل الزواج اذ لولا الزواج لم يعصموا ومن ذلك المرض الفتاك لم يسلموا

في الزواج يسلم الرجل مما يعتور الهيئة الاجتماعية ويجتاح ثمراتها ونعني بذلك المقامرة والمضاربة وما ينجم عنهما من الوبال والخسران ، وما يحل بمن ولع بهما من الهلاك والهوان ، فان المتزوج يصده عن الوقوع في هاتين الحالتين ملازمته لزوجه وبحثهما فيما يريانه السعادة العظمى والجذل الاسمى ، وما هو الا البحث فيما يعود عليهما بالسعادة والهناء وتربية البنين والبنات والقيام بتعليمهم وما يبنى على ذلك من الآمال الكبار والمستقبل العظيم

ذكرنا من مزايا الزواج ما هو بعض من كل فان له من المزايا ما لا يعد ولا يحد وهناك مزايا أخرى هي اعلى واسمى من كل ما ذكر لا يعرفها الا المتزوج نفسه ومن الصعب جداً على الكاتب ان يضع لها تعريفاً لأنها من اللذات الروحية الخالصة التي يتعاصى على اقدر الناس ان يكيّفها بكتابة او قول — وعسى ان نكون ادينا ما يجول في نفسنا من هذا المبحث الجليل لاننا تكلمنا عنه من الوجهة الفلسفية الاجتماعية ومثل هذا لا يروق الا الأقلين

السعاية[1] والخلافة العربية في دمشق

في دمشق الآن مسألة عظمى كانت مسألة المسائل ومعضلة المعضلات في الدور البائد الحميدي ، واظنها تكون اياها في الدور الدستوري الحاضر ان دامت الحال على هذا المنوال الا وان هذا الامر الجلل هو امر الخلافة العربية الموهومة ، وهو الخطب الذي اوهى العلائق بين العرب والترك فيما مضى ،وهو الذي ربما يوهنها الآن ان لم تتدارك هذا الامر العقلاء الدستوريون من اخواننا الاتراك

كان عبد الحميد اشد الناس خوفاً من قيام العرب على الترك ومطالبتهم بحق الخلافة ، وكان يبث الارصاد والجواسيس في البلاد العربية للقضاء على من يرغب في هذا الامر الذى طوته العصور طي "السجل" للكتب ، كما كان يستخدم الجواسيس لغايات أُخر . على انه ان كان هناك من يريد اغتياله اوخلعه تخلصاً من استبداده وجوره ، فليس هنا من العرب العثمانيين من يريد تحويل الخلافة من الترك الى العرب ، وما كان شائعاً ويشاع الآن ان هو الا خرافات واوهام ، ومقاصد سيئة يراد بها مال او وسام

ان العرب العثمانيين هم اكبر واسمى من ان يفتكروا بهذا الفكر ، ويستحيل على عقلائهم ان يجول هذا الرأي في ادمغتهم ، لانهم يعلمون ان المطالبة بذلك والثورة لتحقيق هذه الفكرة تعود علَى العرب والترك معاً بالخراب ، ويكون ذلك سبباً لمحو الامتين ، وداعياً لفقد الخلافة منهما جميعاً . اذ من المشهور المعلوم لدى كل علماء الاجتماع والعمران ان كل امة انقسمت على نفسها فهي سائرة الى الخراب والدمار لامحالة وتشريح ذلك ان الامة متى شُطرت شطرين واخذ بعضها يضرب رقاب بعض فربما فني الشطران ومُحي القومان ، وان لم يكن كل ذلك فان الاجنبي يغتنم فرصة اختلافهما ومناجذتهما، وربما مال الى احدهما دون الآخر حتى اذا ظفر فريق بآخر بطش بالظافر وربما

---

(١) السعاية هي الوشاية والتجسس

بطش بهما جميعاً واستولى على ما لديهما من مال وعقار ورجال ، وجعل الكل تحت سيطرته وسطوته ، والادلة التاريخية على ذلك كثيرة وافرة ، ومن راجع تاريخ فتح القسطنطينية على ايدي العثمانيين وتاريخ تقلص حكم عرب الاندلس «اسبانيا» يعلم ان الوسيلة الكبرى التي مكنت للعدو وسهلت له سبيل النصر هو الاختلاف الداخلي والثورات الاهليه

واقرب ما نضرب للعثمانيين من الامثال هو موقف الدولة على اثر اعلان الدستور في بلادها ، اذ لم يكد يتمّ هذا الامر حتى نزعت اهالي بعض البلاد الى الثورة بتشويق من الرجعيين وترغيب من المتقهقرين ، فاغتنم هذه الفرصة اهل بلغاريا طلباً للاستقلال ففازوا ، وجاهرت النمسا بضم بوسنة وهرسك الى املاكها ففازت ، ولولا الهيجان في داخل البلاد العثمانية والثورات الاهلية لتمكنت الدولة من جمع شتاتها وحصر قوتها وبطشت بالبلغار واوقفت النمسا دون ان تنال مطلباً . ثم عند فتنة ٣١ من مارت الرجعية اغتنم اليونانيون هذه الفرصة وارادوا ان يضموا اليهم جزيرة اقريطش «اكريد» ولولا ثبات الدولة ورباطة جاشها ووقوفها ازاء هذه المعضلة وقوف الرجل القوي الحازم لنالت اليونان مطلبها ولحقت اقريطش ببوسنة وهرسك

هذه امثال محسوسة تدل باصرح برهان على ان الانشقاق الداخلي هو داعية الخراب واستيلاء الاجنبي على البلاد

فهل بعد هذا يُتصوَّر ان العرب العثمانيين ينزعون الى الاستقلال او يميلون الى جعل الخلافة عربية ، وهم يعلمون ان دون ذلك خرط القتاد ، وبينهم وبين تحقيق هذا الامر عقبات واي عقبات ، واقلُّ هذه الصعوبات اهراق الدماء واستيلاء الاجنبي على البلاد دين

ولكن قاتل الله المتقهقرين والجواسيس فانهم كانوا فيما مضى سبب هلاك الاحرار ودمار البلاد ، وهم اليوم يتذرعون بكل قواهم للغاية نفسها ، غير انهم كانوا من قبل مستأجرين على هذا العمل السافل ، ولكنهم يتجسسون اليوم مجاناً بلا مقابل خدمة للشرّ وبغية القضاء على الدستور وطلباً لاسقاط الحكومة الشوروية

ان هؤلاء السفلة قد سقطوا بسقوط الظلم لان موردهم الذي كانوا منه يستقون وهو مورد التجسس قد نضب ماؤه وتبخر ما في اناءه من الفيض بحرارة اشعة شمس الحرية المشرقة ، وارتفع بسقوطهم ارباب المبادئ الحرة والافكار السامية . وقد مال الناس اليهم عشقاً لمبادئهم ومحبة في طهارة وجدانهم . اما اولئك الاوباش فصاروا يترقبون الفرص للقيام ضد الدستور والدستوريين

وقد حصل من هذا القبيل في دمشق فتنة رمضان الماضي التي اتخذ الرجعيون السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار حيلة ووسيلة ينتقمون بها من انصار الحرية ، ثم لما كانت فتنة ٣١ من مارت التي اثارتها الجمعية الولقانية الحميدية كان لدمشق نصيب منها بواسطة هؤلاء الزعانف حتى انهم قد غشوا كثيراً من العامة وبعض الخاصة بالاسم الطاهر الذي اتخذوه عنواناً لجمعيتهم . وقد حرضوا العامة على الفتك بالاحرار كمحمد كرد علي والشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي وعبد الرحمن بك اليوسف والدكتو عبد الرحمن شهبندر وغيرهم ، غير ان الله ردَّ كيدهم في نحرهم وادال من دولتهم بسقوط زعيمهم عبد الحميد السلطان المخلوع مصدر الشرور ومنبع الفساد والافساد

غير ان افعى حقدهم لم تسكن ونيران شرورهم لم تخمد فقد وشوا الى الحكومة بواسطة سفيل من سفلتهم ان هؤلاء المنوه عنهم وكثيراً على شاكلتهم كعبد الوهاب الانكليزي وشكري العسلي يريدون ان يؤسسوا خلافة عربية وان لهم مريدين في الاقطار العربية كافة ، الى غير ذلك من الاقوال الكاذبة والوشايات التي تذكرنا بزمن الاستبداد وما كان يحصل فيه من امثال هذه الاراجيف والاقوال الافاكة

لم يكد يتبرأ كرد علي من تهمة الارتجاع التي وصمه بها هؤلاء الاسافل حتى اختلقوا امراً آخر عليه وعلى اخوانه الاحرار في دمشق ، وذلك هو مسألة الخلافة العربية ، وقد اتفق ان بعض اصحابه ممن حضر تلاوة منشور شيخ الاسلام الذي يبين فيه ان الدستور مطابق للدين وان الشورى هي من اعظم الاركان التي يُبنى عليها—

اخبره ان في ذلك المنشور ما يدل على ان ملك بني عثمان ليس من الخلافة وان الخلافة انقطعت منذ عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، فتلقى هذا الخبر على علاته لثقته بصديقه ونشره في جريدته ، ثم لما اطلع على نص المنشور لم يجد فيه شيئاً من ذلك فبادر الى تكذيب الخبر في اليوم الثاني ، غير ان اعداءه اضداد الحرية واعضاد الفساد قاموا وقعدوا وحملوا الوالي ناظم باشا (على ما يقول) على الابراق الى استانة في هذا الشان فجاء الخبر بايقاف الجريدة واقفال المطبعة وايداع اوراق المسألة الى المحاكمة وقد كتبنا في تبرئته والانتصار له مقالاً مطولاً نشرناه في جريدة المفيد وعلى اثر ذلك ظهر تقرير وشاية كان قد قُدم الى المدعي العمومي منذ امد يصرح فيه كاتبه الأفاك ان كرد علي والافاضل الذين ذكرناهم مهتمون بانشاء خلافة عربية وان جمعية النهضة السورية انما أُلفت لهذه الغاية ، فطلب الى الاستنطاق اولئك الاحرار الابرياء مما نُسب اليهم والمسألة لم تزل الى الآن عند هذا الحد ، ويقال ان في ذلك التقرير زهاء سبعين اسم حرّ من افاضل الدمشقيين ، غير ان الحق لابدّ ان يظهر ويقع الواشي تحت نير الجزاء الصارم حتى لا يعود غيره من الاسافل الى مثل هذا العمل المنكر الذي يعرقل مساعي الحكومة الدستورية ويشغلها بهذه المسائل التافهة عما ير في البلاد ونجح العباد

من قتل ماجريات الاحوال علماً واكتنه اعمال الرجعيين وجواسيسهم يعلم ان لهم باعمالهم هذه غايات ومقاصد سافلة — وذلك انهم لما لم ينجحوا في كل الوسائل التي اتخذوها للقضاء على الحرية والدستور عمدوا الى ما كان ينفر منه الناس في الدور الماضي ويبغضونه لاجله ، وهذا الامر الذي عمدوا اليه هو التجسس على الاحرار في دور الحرية كما كانوا يتجسسون عليهم ويوقعونهم في البلاء في زمن الاستبداد والظلم الحميدي ، وانما عمدوا الى ذلك ليفهموا الناس ان لا فرق بين الدورين دور الاستبداد والحرية فان لكلام الجواسيس شأناً فيهما، ومتى رسخ هذا الاعتقاد في القوم ينفرون من الدستور والحرية كما كانوا ينفرون من دور الظلم والاستبداد ، وبذلك يتمكن اهل الرجعى من دس الدسائس وافهام العامة مقاصدهم حتى اذا وجدوا فرصة اثاروهم ضد الدستور ، وحينئذ لا يقف في وجه العامة الثائرين جيش ولا غيره

نعم ان كثيراً من العامة في استانة ودمشق وغيرها ثارت ضد الدور الجديد بتشويق

من الرجعيين فلم تفلح ، ولكن عدم فلاحهم ناشئ عن عدم اتفاق العامة في كل البلاد العثمانية على ذلك لان جمهوراً من الشعب فيها قادر الحرية قدرها . ولكنهم متى علموا ان زمن الحرية وزمن الاستبداد واحد وان الوشاية على الاحرار والافاضل مسموعة فيهما فحينئذ تتفق كلمتهم على الثورة وبذلك خراب البلاد . فالى هذه نقطة هذه الدائرة نوجه نظر الحكومة الجديدة لتهتم بها وتقطع دابر التجسس وتقضي على المتجسسين والرجعيين حتى لا يبقى في جسم املهم ذماء ولا في مرجل ما يطمعون فيه ماء . وهناك انجاح البلاد وترقيتها

قلنا في صدر هذا المقال ان الخلافة العربية امر موهوم في الديار السورية والمصرية . وربما كان له بعض الصحة في بعض الاقطار اليمانية . ولكن هل يجوز في نظر الدستور ان تعتبر كل بلاد العرب على هذه الشاكلة ؟ اللهم انا نبرأ اليك من هذه الوصمة التي تعود علينا بالشر

كانت مصر واهلها مغضوباً عليها من الدولة في زمن عبد الحميد لان الوشاة كانوا يُفهمون السلطان المخلوع بان فيها فكرة انشاء خلافة عربية . ولذلك كانت تنظر الى اهلها نظر الاحتقار والعداء . وقد صارحت كثيراً من علمائها وامرائها بالعداوة والاذى لهذا السبب . حتى ان شيخنا المرحوم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رضي الله عنه كانت الجواسيس والارصاد تبحث عنه في سواحل بيروت لتقبض عليه مع انه كان في ذلك الحين على فراش الموت في الاسكندرية

لو بحثنا عن اصل السبب الذي جعل الدولة تسيء الظن بالمصريين كما اخذت تسيئه الآن بالسوريين لوجدنا الانكليز هم منشا هذا الفكر بلا شبهة ولا ريب

ذلك لان الانكليز على اثر احتلالهم القطر المصري اخذوا يبذلون الجهد لتنفير الدولة من مصر والمصريين ومتى رأى المصريون ان الدولة نافرة منهم ومبغضة لهم نفروا هم منها . ومتى تمّ هذا الامر كان داعياً لفتور الميل ثم الى قطع الصلات والعلائق . وبذلك تقطع الدولة املها من ارجاع مصر اليها . وييأس المصريون من الاستنجاد بالدولة فيما لو طالبوا بحقوقهم وهو جلاء الانكليز عن بلادهم . وحينئذ تستقل انكلترا بمصر دون معارض . ثم ينتهي الامر بضمها الى بلادها ووضعها تحت سيطرتها المطلقة . ولكن نسال الله ان يصرف الدولة الدستورية عن فكرها في مصر . لان المصريين من اخلص رعاياها كما دلّ على ذلك الدور الماضي وايده الدور الحاضر

وخلاصة الكلام ان العرب العثمانيين سواء في مصر وسوريا هم رعايا الدولة المخلصة وليس الاتراك اكثر اخلاصاً لها منهم وان كل هذه الاراجيف لا يُقصد بها الا اضعافها وايقاف سيرها وتعطيل حركة دولاب اعمالها . وان بقيت مصرة على هذه الاعمال وعلى اساءة الظن بالعرب يشغلها ذلك عن التقدم الى الامام . لانها تكون مضطرة حينئذ الى الاشتغال بالعبثيات والتلهي بها عما ينفع البلاد والعباد وفق الله الحكومة الجديدة الى ما فيه خيرها وفلاحها وما ذلك على الله بعزيز

الحرب في البحر

او واقعة توشيما بين الروس واليابان

نظمها بلبل بغداد معروف افندي الرصافي

سعروها في البحر حرباً ضروسا   تأكل المال نارها والنفوسا [1]
قرب «جوشيما» قد تصادم اسطولان — اردى اليابان فيه الروسا
يوم «طوغو» دها باسطوله الروس — قتالاً وكان يوماً عبوسا
فحداها بوارجاً تملأ البحر — وقاراً طوراً وطوراً بوسا [2]
كل مخارة اذا حركت دفاعها — خضخضت به القاموسا [3]
مذ بنوها لهم كنيسة حرب — تخذت كل مدفع ناقوسا
عرش بلقيس في المناعة لكن   قد حكت في احتشامها بلقيسا
ألبسوها من الحديد وشاحاً   فتهادت على العباب عروسا [4]
واذا تنشر البنود بنود النصر — فيها تخالها الطاووسا
واذا جنها على البحر ليل   اطلع الكهرباء فيها شموسا [5]
قد أبى بأسها الشديد سوى — الفولاذ درعاً لجسمها ولبوسا
سيروا البرق بينهن رسولاً   صادقاً ليس يعرف التدليسا
فهو فيها لسان صدق يؤدي   دون سلك كلامها المأنوسا
انما سلكه الاسير الذي راح — بطيّ اهتزازه مدسوسا

(١) الضروس: المهلكة (٢) حداها: ساقها (٣) الدفاع: الشيء العظيم يدفع به مثله. واراد به ما يكون في مؤخر الباخرة ليدفعها للسير وهو الذي تسميه العامة «الرفاص» خضخضت: هيجت وحركت. القاموس: البحر ومعظمه ووسطه (٤) العباب: معظم الماء (٥) جنها: سترها

جهزوها مدافعاً فغرت افواه — نارٍ قد التقمن الشوسا(١)
دلعت السنا من النار حمراً ويل من قد غدا بها ملحوسا
ترسل الموت في قنابل كالشهب — ذريعاً مستأصلاً عتريسا(٢)
طالما بانفجارهـا انفلق البحر — انفلاقاً مذكراً عهد موسى

***

بثّ اسطوله فلبّسه «طوغو» — باسطول خصمه تلبيسا
حيث قد اجفلت من اللجج الحيتان — تخشي من اللهيب مسيسا
وعلا البحرَ مكفهرٌ غمام من دخان همي ولكن بوسى(٣)
ثار طرّادهم بجيش بنسّافات — سفنٍ لهم سجرن الوطيسا(٤)
كجبالٍ ترى البراكين فيهـا تقذف الموت جارفاً والنحوسا
فاباحوهمُ هنالك قتـلاً واغتناماً نفوسهم والنفيسـا
فسل اليمّ كم تضمّن منهم مُغرَقاً في عبابه مغموسا(٥)
هاجموهم وللهياج سعير ملأت واسع الخضمّ حسيسا(٦)
فكسوهم من الهوان لبوسا وسقوهم من المنون كؤوسا
صرعت في الوغى ليوث من اليابان — اسطول خصمها مفروسا
فأنتضوها عزائماً ماضياتٍ طأطأ الروس دونهن الرؤوسا(٧)
وجلوها في الروع بيضَ فعال أقرأتهم كتب الفخار دروسا

---

(١) فغرت : فتحت • الشوس : جمع اشوس وهو يطلق على الذي ينظر بمؤخر عينه تكبراً او تغيظاً • وعلى الجرئ على القتال الشديد (٢) الذريع من الخيل الخفيف السير والواسع الخطو • و يقال • موت ذريع اي فاشٍ وقتل ذريع اي فظيع • استاصله : قلع اصله • واستاصل القوم قطع اصلهم • العتريس من معانيه : الجبار الغضبان والغول الذكر الداهية والضاغط الشديد (٣) البوسى : ضد النعمى (٤) سجرن : اشعلن • الوطيس : التنور • يقال حمي الوطيس كناية عن اشتداد الحرب (٥) اليم : البحر (٦) الخضم : البحر (٧) انتضى حسامه : جرّده

ان يوماً لهم تقضّى بجوشيما — ليومٌ بالذكر زان الطروسا
بات طوغو يجنى الاماني اذ با ت قنوطاً عدوه ويؤسا
قائد لم يَرِدْ لظى الحرب الا مُصدراً رأيه لها جاسوسا (١)
تاه اسطوله على اليم عجباً حين اضحى لمثله مرؤوسا (٢)
ان شهماً تقلد العقل سيفاً لحريٌ بان يكون رئيسا
ومليكاً ولّى الامور ذويها لجدير بملكه ان يسوسا
وسل البرّ عنهم كم سعوا فيه — خميساً عرمرماً نخميسا (٣)
رجلاً يملأ الفضاء وخيلاً حملت للوغى الكماة الشوسا (٤)
صوّبوها بنادقاً تطلق الموت — رصاصاً به ابادوا النفوسا
فاقاموا بها على الروس حرباً عبدوا نارها وليسوا مجوسا
هكذا شيّدوا بناء المعالي هكذا أحسنوا لها التأسيسا

تذييل لمقالة اكريت

بقلم صاحب الامضاء الرمزي

ورد في آخر جزء من نبراسكم النيّر ذكر جزيرة اكريت وحوادثها فذكّرني ذلك ما علق بالخاطر من كيفية اخلائها وجلاء الجيش العثماني عنها وسياسة عبد الحميد يومئذٍ فيها فاقول:

بعد ان اشتدت مشكلة كريت حوالى سنة ١٩٩٨ (غ) على عهد واليها وقائدها المرحوم جواد باشا المشير المعروف واحد الصدور السابقين قام غليوم الثاني يشدد عزم الدولة و يعدها بالمساعدة والمدافعة عن حقوقها ناصحاً لها بابقاء جنودها في قلاع خانية والصودا وبينما كان المرحوم جواد باشا يصرح للدولة وللدول الاجنبية بانه لن يغادر الجزيرة حيّاً

(١) لظى الحرب : نارها (٢) الضمير في اضحى عائد للاسطول • وفي مثله راجع لطوغو
(٣) الخميس: الجيش والعرمرم الكثير (٤) الكماة : جمع كمي وهو الشجاع • والشوس: نقدم ممنلها

ارسل امبراطور روسيا كتاباً الى عبد الحميد يقول فيه : ان جلاء الجنود العثمانية عن اكريت جميل يصنعه السلطان مع القيصر لاينساه ابد الدهر . فانقلب عبد الحميد الى هذه السياسة واخذ باصدار الاوامر الى جواد باشا آمراً بالجلاء وتسليم الجزيرة للدول فشق الامر على ذلك القـائد فابى وامتنع واجاب مولاه بالرفض فازداد عبد الحميد حنقاً وجعل يوالي اوامره بالمعنى المتقدم وجواد باشا يشتد في الرفض الى ان جمع جنوده يوماً وكانوا زهاء اربعة آلاف واطلعهم على اوامر الاستانة فصاحوا كلهم مستنكرين طالبين الموت في سبيل الجزيرة والدفاع عنها ، وطلبوا اليه ان يجيب الاستانة بأنهم لايخلون الجزيرة حتى تزهق ارواحهم جميعاً ، وكان ذلك عين ما يتمناه قائدهم فكتب بواقعة الحال الى الاستانة فلم يلتفت الى قوله ، وعادوا يأمرونه بالجلاء والانسحاب فضاق رحمه الله ذرعاً وارسل الى الصدارة والسر عسكرية و باشكتابة المابين يقول:

انكم على يقين من انه لايحاسبكم احد في هذه الدنيا أفلا تفكرون بحساب الآخرة ؟

وحدث ان امبراطور المانيا عزم يومئذ على زيارة البلاد العثمانية فانتهز عبدالحميد الفرصة وامر ان يُعين جواد باشا مهمنداراً له ، و بذلك تمت الخدعة على القـائد وانسحب من الجزيرة وحده ، ثم سعوا في اخراج العساكر فاجلوها عن كريت واوهموا الامبراطور ان جواد باشا سلّم الجزيرة ، وامروا هذا ان يجتنب مقابلة الزائر الكريم وان يتقدمهُ في جميع الاماكن بحيث لايلتقيان ، وعلى هذه الصورة كان جواد باشا مهمنداراً لغليوم . ويذكر القراء أنه عند وصول غليوم الى بيروت وسفره الى دمشق لم يكن جواد باشا في حاشيتهِ بل ظل يتقدمه مرحلة فمرحلة ثم انه بعد رجوعه من دمشق قضى بضعة ايام في قرية « عين عنوب » من جبل لبنـان ضيفاً على الامير مصطفى ارسلان الى ان رحل غليوم من بيروت، واهدى الامبراطور جميع من لاقاه ورافقه من رجال الدولة اوسمة مختلفة ولم يحرم منها غير جواد باشا ظناً منه انه هو الذي خان دولته بتسليم الجزيرة

ولم يعد غليوم إلى بلاده حتى لقي من اطلعه على الحقيقة وما كان من الدسيسة وكيف ان الجنود العثمانية وضباطها وقائدها كانوا على استعداد للموت في سبيل اكريت . فعجب وندم وارسل الى جواد باشا وسام النسر الاحمر الكبير مع رسمه العسكري مكتوباً عليه بيده : «الهوهنز ولرنيه»

ثم ان المرحوم جواد باشا بقي في سخط عبد الحميد سائر ايامه . وبعد ان جعلوه قائداً للفيلق الخامس مرض واشتد عليه الداء ، وكانت ايامه في صوفر شديدة عليه الى ان اذنوا له بالعود الى العاصمة فلم يصل اليها حتى مات رحمه الله . (ع)

القصائد الشرقيات

يُنشر تحت هذا العنوان القصائد التي نظمها منشئ «النبراس»
في ايام الاستبداد في موضوع الشرق والشرقيين وحثهم على التعلق
بمعالي الامور وطرح رداء الكسل والذل عنهم

٢

حالة الشرقيين في الحياتين

جاوز الامر المكان الارفعا وطغى الخطب فهدَّ الاربعا
ولبسنا غير قسر ظلما حاكها الجهل رداءً اسفعا
فظللنا نرتديها لا نرى من بنات الفكر شهباً لُمَّعا
ان تُصب نجم الدجى صار جذى فنرى نور الهدى ملتمعا (١)
قد احاط الوهم فينا وكست وجهنا سحب الاماني برقعا
ونما في قلبنا بذر الشقا وسقيناه الضلال المنقعا (٢)

(١) جذى : جمع جذوة وهي القطعة من النار (٢) المنقع المربي

يا بني الشرق وارباب الحجى   طلقوا الجهل وعافوا الفزعا
بلغ السيل الزُّبى فاقتلعا   روضة الفضل وادنى المصرعا (١)
وطمى الجهل طموًا زعزعا   أسسَ المجد فآلت بلقعا (٢)
ودجى بعد الهدى الامر فهل   للعلى يا قومنا ان يرجعا (٣)
فالى مْا بين اجواز الدجى   نرقب الديجور ان ينقشعا (٤)
والى ما نلبس الهون اما   آن يا شرق الهدى ان تسمعا
غرَّك الوهم فلم تدأب الى   خطب ابكار المعالي مسرعا
حاطك العجب بآباء مضوا   اقتبسوا العالم فضلاً اجمعا
أكفاك التيهُ والعجبُ لهم   ان ترى آثارَهم متَّبعا
اين ذاك المجد هل أودى به   معشرٌ خاروا الهوى مضجعا
حسبوا الراحة ان لا ينصبوا   فخسرنا (الدين والدنيا معا)
راحة فيما بدا لكنما   الم المخزاة فيها أُودعا

***

عجبًا ترجو المنى يا شرقنا   والمنى حلَّت مكانًا امنعا
كيف ترجو ان تنال المبتغى   وتطولنَّ السماك الارفعا (٥)
وتسامى فوق افلاك العلى   وتقود المجد مهراً طيّعا
والى العلياء لم تقصد وهل   يبلغ العلياء الا من سعى

(١) الزبى جمع زبيه وهي الرابية لايعلوها الماء او حفرة للاسد او حفرة في موضع عال يصاد بها الذئب او الاسد . ويروى الربى بالراء المهملة ، وهو مثل يضرب لاشتداد الامر وبلوغه الى غاية بعيدة . (٢) طمى : ارتفع وزاد . البلقع والبلقعة الارض القفر لا شيء فيها ومنه قولهم : اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع » (٣) دجى : اظلم (٤) اجوازًا : جمع جوز وهو وسط كل شيء الدجى : الليل . الديجور : الليل المظلم (٥) يقال طالني فطلته : اي غابني في الطُول والطَّول فكنت اطول منه . السماك واحد السماكين وهما نجمان

ليس يحظى بالمنى الا فتىً رضع الاهوال مهما ارتضعا
غالبَ الدهرَ فلم يغلب وهل يغلب الدهر الهمام الاروعا[١]
فاْتَّئِب وافكر اذا رمت العلى واحترس ان لم تنل ان ترجعا[٢]
واصطبر إما اتت آسادها زائرات هائجات شُرَّعا
ليست العلياء شيئاً هيناً قد علمناها عريناً مُسبعا[٣]
ليست العلياء نوماً في الضحى مَن نوى العلياء يجفو المضجعا
او سهاداً بين اسراب دمى في مغانيها الردى قد هجعا[٤]
في قصورٍ ناغت السحب وما اذن الله لها ان تُرفعا
انما العلياء جهد النفس في مهمه الجد اذا المجد دعا[٥]
لا كمن باعوا الحجى واستبدلوا بالهدى وادي الضلال المفزعا
اقسموا لا يسلكون المهيعا وأَبوا الا المخازي منجعا[٦]
فهم ما بين مولى للهوى (صنع الوجد به ما صنعا)
او فتىً يمطل لا يدرى الوفا وجد الخلف به مُتَّسعا
او رفيع ليس يدري رشده او محابٍ بالنفاق ادَّرعا[٧]
او حسودٍ ضيِّق الصدر ابى قسمة الله فضلَّ المهيعا
فهو في نار الجوى ملتهبٌ يسفح الاحداق غيظاً ادمعا
ان رأى نعمى تمنَّاها له او رأى البائس نادى لالعا[٨]

---

(١) الاروع: الشهم الذكي او الشجاع اومن يعجبك حسنه وجهارة منظره (٢) ائتئب: تمهل (٣) العرين: بيت الاسد. مكان مسبع كثير السباع (٤) السهاد: السهر. الاسراب جمع سرب وهو القطيع من الظباء والنساء وغيرهما. الدمي: جمع دمية وهي المرأة الحسناء مجازاً واصل معناه التمثال من العاج (٥) المهمه: الفلاة المنقطعة (٦) المهيع: الطريق الواضحة. المنجع: المطلب (٧) الرفيع: الاحمق (٨) يقال للعاثر. لعا لك وهو دعاء له بان ينتعش ومعناه سلمت ونجوت . ويقال: لا لعاً له اي لا اقامه الله من عثرته ولا انعشه

قسمة ضيزى وُخلق سافل وامرؤٌ ربع الدنايا انتجعا[1]

***

كيف يرجى الخير والقوم همو ذاك عن ميسره لن يُقلعا
وسواه كارع في غيه ليس يَصغى للهدى مهما دعا
يحسب الصيحة منه زئرةً ويرى الناصح جهلاً سبعا
تخذوا غول الهوى مُعتصماً والهوى فيه الردى قد ربعا[2]
وسوى ذاك وهذا حائر (طائر الوهم عليه وقعا)
ليس يدري للهدى ملتحداً سدل الشك عليه البرقعا[3]
فهو في بيت الهوى طوراً وفي صحصح الجهل يناجي الاربعا[4]
وارى غيرهمُ لادينهُ وهو حق رادع عما ادّعى
فهواما في هواه راتع لا يرى الا هواه مرتعا
اوبليدٌ خامل نكس الحجى ظنّ دين الله تلك الرقعا[5]
ظن دين الله في ترك الدنا ورأى الاعراض عنها انفعا[6]
وهولو جاءته منها بدرةٌ ظلق التقوى وعاف الورعا[7]
فهو لا زهداً بها عنها نأى لكن الجد يُذيب الاضلعا
خاف ان يسعى فيدُمي رجله فرأى الراحة فيما صنعا

***

لا تظنّ الدين ما قد هوّلوا ليس دين الله تلك البدعا
انما الدين ضياءٌ لمعا فاضاء الكون لما سطعا
قبست منه البرايا شعلةً صدعت قلب الدجى فانصدعا

(١) ضيزى : جائرة (٢) رجع اقام (٣) ملتحداً : ملجأ (٤) الصحصح : اصل معناه المستوي من الارض الاجرد (٥) نكس الحجى : ضعيف العقل . الرقع جمع رقعة (٦) الدنا الدنيا (٧) البدرة: عشرة آلاف درهم

ان رأها الليل في غُلْوائه شمر الذيل وولى فزعا(١)

***

لا تظن الدين افعال الألى تخذوه للبرايا خدعا
لبسوه كفراء قلبت ولوَوْا دون الصحيح الاخدعا(٢)
ضلَّ من يجعله مصيدةً لحطام او يراه سلعا

***

ايها النشءُ أفيقوا وأدأبوا لا ينال المجد من قد هجعا
لا يغرنّكم سراب خادع لا ترى فيه العطاشى منقعا(٣)
او سحاب خُلَّب بارقه يخدع الزارع والصادي معا(٤)
انتمُ اشبال هاتيك الألى أسسوا للمجد بيتاً ارفعا
انتمُ اشبال أُسد سجدت لهم هام المعالي خُشّعا(٥)
هل لكم ان تطلعوا ذاك المدى يتجلى بعد ليل اسفعا(٦)
هل يرجّى ان تعيدوا مجدهم بعد ما قد فات ام لا مطمعا

***

إي وربي ان تجدُّوا تصلوا ذلك العهد الذي قد قُطعا
او تزالوا في الاماني هجّعا كبَّر الويل علينا اربعا(٧)

---

(١) غلوائه : شدته واصل معنى الغلواء اول الشباب ونشاطه (٢) الفراء جمع فروة الاخدع عرق في العنق وهما اخدعان (٣) السراب ما يراه الانسان في الفلاة وقت اشتداد الحر كانه ماء . منقعاً : ارتواء (٤) الصادي : العطشان (٥) هام : جمع هامة وهي الرأس (٦) الاسفع : الاسود (٧) هجعاً : نائمين

حديث

هاشم بن يحيى
او
شقاء الشبان

بقالب رواية خيالية اخلاقية تهذيبية ادبية تأليف منشيء «النبراس»

تابع حديث الجلسة الثانية

قال هاشم بن يحيى : ثم لاحت من الشيخ التفاتة الى زاوية من زوايا السجن فاذا فيها شاب تلوح عليه مياسم الذكاء واظن أنه واقف على باب العشرين من العمر ، وهو لطيف الهيئة وضيء الطلعة حسن البزة ، غير انه كان منقبض الصدر ضيق مجال القلب، لما على وجهه من التقطيب وما يتصاعد منه من الزفرات، ثم وددنا ان نستطلع امره ونستعرف السرّ في سجنه ، فناداه الشيخ : أي بُنيّ هل لك ان تكون معنا فنأنس بك وتأنس بنا ، فاني اراك قد اعتراك مسّ من الهموم، واصابك طائف من الاحزان

الشاب — : نابني ما نقول حتى كاد يودي بحياتي و يُذبل نضرة شبابي، لهذا احبّ ان اكون منفرداً متعزلاً بني آدم وان كنت منهم ، فان ما اصابني من الشرور لم يكن الا من اجتماعي بهم وميلي الى اعمالهم وتدنسي باوضارهم ، فهل لك يامولاي ان تتركني وشأني، اقاسي اليم العذاب جزاء اعمالي التي لا يرضاها رجل له عقل او القى السمع وهو شهيد

قال هاشم : فتاقت نفسي ونفس الشيخ الى استفهام كنه قضيته ومعرفة ماجريات احواله وما الذي دعا رجال الشرطة الى القبض عليه. فقال الشيخ : أي بُنيّ اني وان اثقلتك بالكلام ، واحرجت صدرك بحديثي ، فارجوك بمن رفع السماء وعلّم آدم الاسماء ان تدنو منا فيكون بحديثك لنا سلوى على ما اصابنا

قال هاشم : وكان الشاب تغلب عليه دماثة الاخلاق فقال للشيخ : مرحباً بك

يا أبيَّ ، ثم دنا منا وجلس بين يدي الشيخ ، فقال له الشيخ : أي بُنيَّ ما الذي اجاءك الى هذا القبر؟ وما الذي حمل رجال الشرطة على الاتيان بك لتُدفن وانت حي في هوّة هذا السجن القاتم الاعماق المظلم الارجاء

الشاب — : راعني سمعك يا مولاي : اني من أُسرة وسط ليست من الأُسر « العائلات » المبرّزة بجاهها واموالها ، ولا الوضيعة بنسبها ورياشها ، وكان لي والد ميال الى المسكرات مُغرماً فيها ، وكان يأتي كل ليلة يتمايل تمايل البان وقد لعبت فيها الرياح ، وكان يجيء في بعض الاحيان بزجاجة مملوءة من الخمرة فتكون في جيبه وكان يشرب منها سراً ، فرأيته ذات يوم وهو يعاطيها فلم يشعر بي ، فلما وضعها في مكانها استغفلته لأنظر ما فيها فرأيت منه غفلة فأخذتها وشربت منها قليلاً فوجدت من ذلك اريحية ونشوة ، غير اني لم آتِ على ما فيها كله خوفاً من والدي ، وفي اليوم الثاني فعلت فعلي بالامس ، وفي اليوم الثالث كذلك الى ان تمكن حبُّ المسكرات من قلبي ولم يعد لي صبر على اغفالها ، حتى صرت لم اكتفِ بما اختلسه من زجاجة والدي ، بل كنت اقتصد من دخلي ، واحياناً من ثمن الكتب التي تُلزمني بشراءها المدرسة ، وآونة اكذب على والدي واقول له : ان المعلم امرني بان آتي بكذا قرشاً لشراء الكتاب الفلاني ، ثم اذهب الى الحانة[1] واشتري بذلك من الخمرة والجعة[2] ومايلذُّ من انواع الشراب . ولم ازل على تلك الحال حتى صار حبُّ الخمور طبيعة من طبائعي وقد ملك قلبي وأسر لبي ، ويا ليت الأمر بقي عند هذا الحد ، بل ساقني ذلك الى اقتراف المنكرات كالزنا واللواط والمقامرة وغيرها من الموبقات ، ولا يخفى ان هذه الامور تستدعي اموالاً كثيرة ، فكنت لا اجد من المال ما يكفيني ، فهممت مرة ان اسرق من كيس والدي ما استعين به على هذه الموبقات ، فوجدت اذ ذاك رادعاً قوياً اجتذبني مما هممت به ، فكان لسان حاله يقول : « تباً لك وخسراً وويلاً لك الم تكتفِ بما

(١) الحانة : موضع بيع الخمر (٢) الجعة : نبيذ الشعير وهو ما يسمونه اليوم « البيره »

انت فيه من المهلكات حتى عزمت على السرقة ؟ فارجع شلّت يمينك » فبقيتُ متحيراً مبهوتاً الى ان مضت طائفة من وقت لهوي ، ثم هممت ثانية فرجعت بخُفّي حنين خجلاً مما اعمل ، الى ان انقضى الوقت ولم اتمكن من الذهاب الى معاقرة بنت الحان ، والاجتماع بالخليلات والخلان ، فلم اعرف كيف مضى عليّ ذلك الليل . فلما كان اليوم الثاني رآني بعض من اجتمع بهم في نادي الخمور واكون معهم في دُور المقامرة وبيوت المومسات وكلهم يحملون اليّ جُمَلَ الملام وعبارات العذل ، لاني لم اكن معهم في تلك الليلة ، واخذ كل نفر يطنب بما لاقاه من السرور فيها ، فأسفتُ لتأخري عن الحضور معهم وعدم مشاهدة الكأس تُدار ورؤية قداح الميسر يُستقسم بها ، ولعدم الانس بالغانيات تمرح في امكنة البغاء ، غير انه لم يسعني الا الاعتذار باني كنت مع والدي عند بعض اقاربنا ، فقال بعضهم اني لأظنك يا هذا من الكاذبين لأني انتظرتك الليلة الماضية امام داركم الى مابعد الساعة الرابعة بعد الغروب فلم تخرج ولم يخرج احد من بيتكم ، فما هذا العذر الذي هو اقبح من الذنب ؟ فقلت أجل ان ما قدمته اليكم من العذر ليس له نصيب من الحقيقة ، وانما عذري هو قلة المال لاني ضيق ذات اليد ، فقال احدهم : الم يكن لابيك اموال عظيمة ؟ فقلت : بلى ولكن لا يُنيلني منها سوى ما اتقاضاه كل اسبوع ، وهو كما تعلمون غير كافٍ ، فقال : ألم يكن في كيسه دراهم ؟ فقلت : بلى ، فقال : عليك به فاسرق منه كل يوم ما يكفي لمصرفك ، فقلت : اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين ، اني لم اتعوّد ذلك وقد عزمت على ما تقول مرات فمنعني الحياء والخجل من نفسي ، فقال : حسبك ، أضفْ هذه الجناية الى شربك الخمر وغيره من سائر المنكرات التي تأتيها ، ولم يزل بي يُغريني ويقنعني وقد اعانه رفقاؤُه على ذلك حتى حسّن اليّ هذه الموبقة . فلما أتى الليل عمدت الى كيس ابي فاخذت منه شيئاً من المال وذهبت الى حيث نجتمع

ولم ازل على تلك الحال حتى شعر والدي بنقصٍ في امواله ، وكان يتغافل

ويقول : لعلي اشتريت شيئاً ، لعلي .... فلما وجد ان الخطب يتفاقم اسرَّ الى والدتي حديثه واخبرها بما يحدث كل يوم من النقص فيما يضعه في كيسهِ من المال ،فكانت توار به بحديثها وتصرفه عن فكره مدعيةً انه يصرف ناسياً او ان هناك يداً خفية خارج الدار تعبث فيه،فكان هو ينخدع باقوالها لانها كانت رفيعة المقام عزيزة الجانب عنده لِمَا لها من الجمال المدهش ، وكانت تحبني حبًّا جمًّا وهي عالمة بما اصنع ومطَّلعة على احوالي واعمالي ، غير انها كانت تكره والدي كرهاً شديداً لانها لم تكن راغبة في الاقتران به باديءَ بدءٍ ، الا ان اباها اجبرها على ذلك .....

ثم رأي والدي ان يضع كيس الدراهم تحت رأسه عند المنام ، فلم يُجدِهِ ذلك نفعاً لان والدتي كانت تختزل منه بعض دريهمات وتدفعها اليَّ ، فلما اعياه الامر أتهم الخادمات التي في دارنا فطردهنَّ واتى بغيرهنَّ ، فلم يحصل من ذلك علَى طائل لان يد السارق لم تزل تعبث في ماله ، ثم اتهم والدتي بذلك فكان بينهما بسبب هذا شقاق كبير وامور كادت توصلهما الى مالا تحمد عقباه لَولا ان اصلح اهلوهما بينهما ، غير انه قد اتخذ صندوقاً من حديد وصار يضع فيه ما يحمله من مالٍ ومتاعٍ ثمين

فلما علمتُ ان باب الرزق قد سُدَّ في وجهي عزمت على الانتحار والتخلص من هذه الحياة ، فاسررت الى والدتي بذلك « واني لا اقصد الا تخويفها » فقالت : رفقاً يا بُنيَّ فان عندي من مصوغ الحليّ شيئاً كثيراً فخذ اليوم هذا السوار وبعْه ووسع على نفسك بثمنه ، فاخذته وأبعته على ارباب هذه الصناعة فابتاعه احدهم بعشر ليرات وانه ليساوي ضعفَيْ هذه القيمة ، ولم تكن الا ايام حتى صرفت المال فجئت اليها فاعطتني غيره فعطفت به على الاول . ولم ازل على تلك الحال حتى نفد ما لديها من المصوغات والحليّ

جرى كل ذلك ولم يكن لوالدي علم بما جرى . ثم لما علمتْ انه لا بد ان يعلم بهذا الامر وانه لامناص من ذلك اخذتْ تعمل الفكر لاستنباط الحيل لتتخلص من شرّ وبال هذا العمل ، فادَّاها فكرها ودهاؤُها اختلاق حيلة تتمكن بها من التفصيّ

من منكرها الذي اقترفته ، فكان من ذلك انها بينما كانت نائمة صرخت صرخة دوت لها اركان الدار فقام والدي قلقاً مذعوراً فقال لها : ما اصابك ؟ فقالت له الم ترَ اللص اذ كان يفتح الصناديق ويعبث بما فيها ، فقام الرجل وهو يقدّم رجلاً ويؤخر اخرى حذراً من ان يصيبه اللص « الموهوم » بسوء ، فوجد الصناديق مفتحة « وكانت هي التي قد فتحتها قبل عملها هذا » فلم يجد فيها شيئاً من الحليّ ، فأكبَّ على وجهه من سوء مالقي حتى أُغميَ عليه ، ولم يُفق حتى الصباح ، فارسل نبأً الى محافظ البلدة يُعلمه فيه بماجرى ، فبعث المحافظ قوة من الجند فأمسكت بعض ممن اشتبهت بهم فحوكموا فحكم عليهم بالسجن وانهم براءٌ مما أُسند اليهم

اما انا فلما وجدت الحال كذلك عزمت على الانخراط في سلك اللصوص لآني بما استعين به على الخمر والقمار وغيرهما من مفاسد المدنية الحديثة ، فلبثت اتعاطى تلك المهنة الخبيثة زماناً ليس بالقصير ، الى ان اتيت دار احد الاغنياء فانتهرني الخادم واشهر في وجهي السلاح فاطلقت عليه من مسدسي ثلاث رصاصات فاصابه منهنّ اثنتان كانتا سبب اجتياحه من بستان الوجود ، وفررت هائماً على وجهي لا الوي على شيء ، فرآني بعض رجال الشرطة وبيدي المسدس فاستوقفني فلم اقف بل اطلقت عليه منه رصاصتين فقابلني بالمثل ، فاقصدتني رصاصة في رجلي فوقعت على الارض فهجم عليَّ من كان معه من الجند فاوثقوني كتافاً وساقوني الى السجن ، وكان قد اتى الى دار الحكومة خبرُ ما فعلت في دار الرجل فلم يشكوا في اني انا الجاني ، ثم حُكم عليَّ بالسجن خمسة عشر عاماً ، وقد مضى منها الى الآن ستة اشهر

هذا سبب سجني ايها المولى قصصته عليك ، فاسأل الله ان يغفر لي ما جنيت

قال هاشم بن يحيى : فلما انهى الشاب كلامه التفتُّ اليه وقلت له : كان الاولى بك ان لاتطيع هواك وتفعل ما فعلت ، وانت تعلم ان هذا امرٌ يغضب الخالق والمخلوق ، وفيه الخسار في الدنيا ، وعذاب الآخرة اكبر

فتنهد الشاب ثم قال :

حسبك يا اخي لا تكثر عليّ اللوم

الشيخ — دعه يا بنيّ ، أفتظن ان اللوم كلّه عليه فيما فعل؟ لعمر الحق ليس الملام المرّ والتأنيب الجارح موجّهين سوى لابيه اولاً وبالذات ولأمه ثانياً وبالعرض، أترى لولا انه رأى اباه يتعاطى المسكر ويأتي به الى داره كان هذا المسكين ادّت به الحال الى مانحن معاينوه فيه؟ أترى لولا ان امه كانت تعينه على عمله ذاك كان قد اصابه ما اصابه؟

يا بنيّ ان الولد مرآة ابويه ، فهو يتكيف بالصورة التي تقابله ، فان كانت اخلاقهما فاضلة وتربيتهما حسنة انطبعت فيه ، والعكس بالعكس ، فاللوم على كل حال هم الآباء والامهات ، وقد تكون الام في اكثر الاحايين اشدّ ملامة من الاب ، وقد يكون اللوم عليها وحدها لتغاضيها عن سيئات اولادها ومنعها الاب عن تربيتهم وتهذيبهم شفقة عليهم ورحمة بهم، وما تلك الشفقة وهاتيك الرحمة الابؤس وشقاء واضرار باولادها، فهي قد اماتتهم موتاً ادبياً من حيث تريد حياتهم والرحمة بهم

فعلينا اذن باديء ذي بدأة ان نعني بتربية المرأة وتعليمها وتهذيبها لتنطبع فيها ملكة الاخلاق الصحيحة والآداب العالية والعلم المفيد، ومتى تمّ لها ذلك فهي تربي اولادها على نحو ما ربيت هي عليه ، فلا تتغاضى لهم عن عمل سيء او خلق سافل ، ولكن وباللاسف فنحن لا نعتني بها ولا نعبأ بتعليمها وتدريبها على ما يجعلها سعيدة هي وزوجها وابناؤها، بل نقذف بها الى عالم الزوجية جاهلة فاسدة الاخلاق من غير ان نفتكر انها ستكون ربة منزل وامّ عالم صغير ومديرة حكومة صغرى

فالام هي تلك التي تكون سبب سعادة العالم ان كانت مهذبة عالمة ، وسبب شقاءه ان كانت جاهلة فاسدة ، ولله در شاعرنا الرصافي حيث قال:

ولم ارَ للخلائق من محلّ　　يهذّبها كحضن الامهاتِ

فحضن الام مدرسة تسامت　　بتربية البنين او البنات

واخلاق الوليد تُقاس حسناً　　باخلاق النساء الوالدات

وليس ربيب عالية المزايا كمثل ربيب سافلة الصفات
وليس النبت ينبت في جنانٍ كمثل النبت ينبتُ في الفلاة
فياصدر الفتاة رحبت صدراً فانت مقرٌ اسنى العاطفات
نراك اذا ضممت الطفل لوحاً يفوق جميع الواح الحياة
اذا استند الوليد عليك لاحت تصاوير الحنان مصوَّرات
لاخلاق الصبي بك انعكاس كما انعكس الخيال على المراة
وما ضَرَبانُ قلبكِ غيرَ درسٍ لتلقين الخصال الفاضلات
فاول درس تهذيب السجايا يكون عليك ياصدر الفتاة
فكيف نظن بالابناء خيراً اذا نشأوا بحضن الجاهلات
وهل يُرجى لاطفال كمال اذا ارتضعوا ثُديَّ الناقصات
فما للامهات جهلن حتى اتينَ بكل طيَّاش الحصاة
حَنَوْنَ على الرضيعْ بغير علم فضاع حنوُّ تلك المرضعات

اي بنيَّ ، تباً لمن يُقدم على الزواج وخسراً ان لم يعرف قبل ذلك الآداب الصحيحة والاخلاق الفاضلة ومايجب عليه ان يتصف به حينما يصبح زوجاً ، وويلاً لمن يزوّج ابنته او من له الولاية عليها ان لم يعلمها من قبل امر تدبير المنزل والتربية الصحيحة وواجبات الزوجية التي يتحتم عليها اجراؤُها عندما تصبح ربة منزل ، فاني ارى ان مايجري في هذا الكون من المفاسد الاجتماعية انما سببه فساد التربية البيتية حسبُ اترى يابُنيّ لولا ان آباء هولاء الاولاد هذبوهم وعلموهم وثقفوا عقولهم كانوا قد عملوا معنا ما عملو حتى انتهى بنا الامر الى دخول السجن ، ولكن آباءهم وامهاتهم عدموا التربية والتهذيب فأنّى لهم ان يهذبوا ابناءهم فلا حول ولا قوة الا بالله

قال راوي هذا الحديث : فلما وصل هاشم بن يحيى الى هذا الحد من الكلام ضاق بنا الوقت فتفرقنا على ان نجتمع في الليلة الثالثة بعد الغروب بثلاث ساعات

«البقية للآتي»